في النقـــد

« المنتمي » ، بقلم غالي شكري . مكتبة الزناري ، القاهرة ، ١٩٦٤

في حقلنا النقدي تعد هذه المحـــاولة الاولى في اختيارها لموضوع واحد ولكاتب بعينه ، هو نجيب محفوظ . يجب ان يحتفل الادب والنقد بناقد مثل غـــالي شكري يقوم بهذا الجهد النشيط وهذا الاخلاص المثابر . ولا ادري سبب هذا الصمت الذي قوبل به هذا العمل المهم .

اهم شيء استوقفني في هذا العمل هو هذا الخيط الواحد الذي يربط كل كلمة بغيرها من الكلمات . هذا الربط الدقيق يدل على وضوح رؤية الناقد وشدة وعيه بعمله ونفاد بصيرته الى موضوعه وحسن اختياره للزاوية التي اراد ان يرى منها انتاج نجيب محفوظ .

وكان الدكتور علي الراعي قد كتب يقول ، منذ سنوات ، ان كال عبد الجواد في ثلاثية « بين القصرين » يمثل اللامنتمي في ادبنا المصري . وجاء غالي شكري ليقول ان كال عبدالجواد، ومن ورائه نجيب محفوظ ، يقدم نموذجا للمنتمي . ولكي يثبت غالي شكري وجهة نظره عكف على دراسة جميع اعمال نجيب محفوظ التي كتبها في الفترة الواقعة ما بين عـــامي ١٩٣٨ و ١٩٦٣ . وبهذه الدراسة الجادة الشاملة اكد لنا غـــالي شكري ان نجيب محفوظ وهو يقدم لنا كمال عبد الجواد كان يسجل وثيقة فنية عن جيل الازمـة في تاريخنا الحديث ، هذه الوثيقة التي تؤكد انتمائية الفنان الذي كتبها .

وقد كان عنوان الفصل الاول من « المنتمي » هو « جيل المـــأساة » ، وفيه يثبت المؤلف ان شخصية كمال هي الاعلان الحقيقي عن ميلاد البطل التراجيدي في الرواية المصرية على المستوى الفني . كما ان هذه الشخصية تعتبر ميثاقا حضاريا عن ازمة جيل مأساة الحرية في بلادنا على المستوى الفكري والسياسي والاجتماعي .

امـا الفصل الثاني وعنوانه « ملحمة السقوط والانهيار » فيقدم لنا نمـــاذج الضائع والمضطهد والطريق القصير والطريق المسدود والسراب في خماسية « القاهرة الجديدة » ، « خان الخليلي » ، « زقاق المدق »، « بداية ونهاية » ، « السراب ». ولما كانت الملحمة تنتهي في اغلب الاحيان بانتصار البطل ، فقد يبدو ان ثمة تناقضا وقع فيه غـــالي شكري حين اختار عنوان الفصل الثاني . واعتقد ان البطل المنتصر في هذه الملحمة هو الشعب المصري الذي ربما تقهقر ريثما يأخذ انفاسه ولكنه لا يلقي السلاح ابدا او يسلم بدواعي الهزيمة. وليست نماذج السقوط والانهيار الا كاوراق صفراء تتساقط من هذه الشجرة السامقة التي تقف في شموخ وكبرياء وصمود . على ان غـالي شكري قد اراد من هذا الفصل ان يجسد الوضع المـــأساوي للبرجوازية الصغيرة حين قال : « عقدة الكرامة دائما في مأساة البرجوازية الصغيرة هي احساس حاد ملتهب بالنقص الاجتماعي . هي تعويض نفسي عن الخوف والجبن امام الواقع » . ويفسر المؤلف رؤية نجيب محفوظ لازمة المجتمع المصري على انها رؤية يسارية تتضح من فهمه للبناء التركيبي للاحداث ، « فتطور مراحل الكفاح المصري من الحزب الوطني الى حزب الوفد الى الحركات الاشتراكية هو تطور يتفق مع مفهوم اليسار لحركة التاريخ » ، كما يقول المؤلف .

وفي الفصل الثالث « المنتمي بـــين العلم والدين والاشتراكية » يرسم لنا غالي شكري سيرة البطل العظيم – الشعب المصري – في طريق الاشتراكية والعلم. وفي هذا الفصل يركز المؤلف تركيزا واضحا على العمل الكبير الذي لم ينشر بعد في كتاب لنجيب محفوظ، واعني به رواية « اولاد حارتنا ». (وقد نشرت هذه الرواية على صفحات « الاهرام » في الاشهر الثلاثة الاخيرة من ١٩٥٩) . وقد كتبها نجيب محفوظ بعد صمت دام سبع سنوات . والبطل الاول لهذه الحارة هو الجبلاوي. وانا ارى ان الجبلاوي هو اول فرعون حكم هذه الحـــارة

– وهي مصر – وادارها من بيته العالي . اما شخصيات جيل ورفاعة وقاسم فتشير الى ان الحارة قد مارست في طريقها الروحي العظيم الحلول الدينية الثلاثة. وتنتهي « اولاد حارتنا » بهذه الكلمات : « لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب ». اي ان « اولاد حارتنا » تنتهي باقتصار العلم من ناحية ، ولكنها من ناحية اخرى تقدم لنا تاريخنا كله موحدا غير ممزق في عمل روائي متكامل .

وكان يمكن ان ينتهي كتاب « المنتمي » بهذا الفصل ، الذي اختتم بالانتماء الى المستقبل في « السمان والخريف » . ولكن غالي شكري اراد ان يدفع انتماء نجيب محفوظ خطوة اخرى ، هي « الوجود » بمعناه الكوني الشامل ، بعد ان كان قاصرا حتى هذا الفصل على « المجتمع » . ولكي يقدم لنا هذا الموقف من « الوجود » فانه اتخذ من مجموعة « دنيا الله » دليلا ومرشدا وقائدا روحيا . وفي هذا الفصل الرابع والاخير من هذه الدراسة الاكاديمية الجادة، وعنوانه « رؤيا الثورة الابدية »، حلل المؤلف تحليلا دقيقا فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ . ومع اعجابي العميق بهذا الفصل ارى ان الفصل الثالث هو اروع فصول الكتاب وهو الجدير بان تنتهي عنده وبه دراسة «المنتمي». ذلك ان الانتماء مقولة اجتماعية ولا يمكن ان يكون مقولة وجودية .

يقول غالي شكري في نهاية « المنتمي » ان عمل الناقد يقتصر على تحليل العمل الفني الى عناصره الاولية ثم صياغتها على نحو جديد ، تتجلى به اوجه الاختلال او التوازن او الاهتزاز في الرؤيـــة ، كالفنان الذي يحلل العالم الى عناصره الاولية كذلك ويعيد صياغته على نحو جديد ، تتجلى بـــه اوجه الانهيار والتحلل او الانسجام والتماسك . ومن خلال الصياغة التعبيرية لهذا العالم يتبين لنا موقف الفنان ووجهة نظره بل ورؤياه. ومن خلال الصياغة النقدية للعمل الفني يتبين لنا موقف الناقد ووجهة نظره ورؤياه .

واذا كان هذا هو مفهوم غالي شكري في النقد والفن ، فان كتاب « المنتمي » يعد تطبيقا مجيدا وعميقا لهذه النظرة النقديـــة ولهذا المنهج العلمي السليم . ولعل هذه النظرة الى ادب نجيب محفوظ هي التي دفعتني الى رفض عنوان الفصل الثـــاني « ملحمة السقوط والانهيار »، لان الملحمة عودتنا على انتصار البطل . وادب نجيب محفوظ ، ككل، يقدم لنا هذا العنصر الملحمي ، اذ ينتهي كل عمل بانتصار البطل – والبطل الذي يقدمه نجيب محفوظ في كل اعماله هو الشعب. ويقول لنا غالي شكري : « ان جميع الطرق مسدودة امام الوسائل للتمرد ، ولم يعد هناك الا الثورة الشاملة » . وبهذا النص يتفق معي غالي شكري في ان الطريق الملحمي هو الطريق الذي يسير فيه كل ابطال نجيب محفوظ . ولعل كل عمل في انتاج هذا الفنان العظيم هو خطوة في الطريق الى النصر الملحمي التقليدي . ويؤكد غالي شكري هذا المعنى عندمـا يقرر ان « رؤيا نجيب محفوظ لم يكتمل بناؤها بعد ، لان تطوره ومنهج هذا التطور يؤكدان انه لم يقل كلمته الاخيرة بعد » .

وقبل ان اترك الكلام عن هذا الكتاب الرائد احب ان اتساءل :

لمـــاذا لم يتناول كتاب « المنتمي » الروايات الفرعونية كما تناول في الفصل الرابع القصص الفرعونية القصيرة التي نشرها نجيب محفوظ ضمن مجموعته القصصية الاولى « همس الجنون » عـــام ١٩٣٨ ؟ وذلك لاهمية دراسة هذه الروايات في ايضاح مراحل واشكال الانتماء الفني عند نجيب محفوظ .

ولماذا لم نجد في هذا الكتاب الاول عن نجيب محفوظ كلمة عن حياته الشخصية ودراساته ؟ اي كلمة عن الانسان الذي يعيش وراء الفنان .

واخيرا فاني احب ان اقرر ان المنتمي الصادق الانتماء هو هذا الناقـــد الذي لمس بحسه الوطني ووجدانه الفني مسار تطور فنان عظيم الانتماء كنجيب محفوظ ، وتمكن برؤيته الواضحة الصادقة ان يبين لنا الرسم البيـاني لانتاج هذا الفنان المتجه نحو اليسار الايجابي المتكامل . ان عمل هذا الناقد المخلص يفتح امـام جيل من النقاد الجادين لدراسات لا حصر لها في ادبنا الحديث .

توفيق حنا